تفسير سورة يوسف

وهى مكية

روى الثعلبى [١] وغيره من طريق سلام بن سلم، ويقال: سليم المدائنى، وهو متروك عن هارون بن كثير، وقد نص على جهالته أبو حاتم، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى أمامة، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ما ملكت يمينه، هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلمًا».

وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية، وقد ساقه له الحافظ ابن عساكر متابعًا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير به، ومن طريق شبابة عن مخلد بن عبد الواحد النضرى، عن على بن زيد بن جدعان، وعن عطاء بن أبى ميمونة، عن زر بن حبيش، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ، فذكر نحوه، وهو منكر من سائر طرقه، وروى البيهقى فى الدلائل: أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم، وهو من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أى هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أى الواضح الجلى الذى يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير [٢]: حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى، حدثنا حكام الرازى عن أيوب، عن عمرو هو ابن قيس الملائى، عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، ورواه [٣] من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلًا. وقال أيضًا: حدثنا محمد بن سعيد العطار، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا

(١) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٣/ ١٠)، برقم (٤٠٠٦).
(٢) الطبري في التفسير (١٢/ ١٥٠). (٣) انظر السابق.

خلاَّد الصفار عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن. قال: فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ الآية ثم تلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية[الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث.

ورواه الحاكم [١] من حديث إسحاق بن راهويه عن عمرو بن محمد القرشي العنقزي به.

وروى ابن جرير [٢] بسنده عن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾[الزمر: ٢٣] ثم ملوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث، ودون القرآن يعنون القصص، فأنزل الله عز وجل ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية، فأرادوا الحديث، فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد [٣].

حدثنا سريج بن النعمان، أنا هشيم، أنبأنا مجالد عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ. قال: فغضب وقال: «أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا لما وسعه إلا أن يتبعني».

وقال الإمام أحمد: [٤] حدثنا عبد الرزاق، أنا سفيان عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً. قال: فسرى عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي [٥]: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عرفطة قال: كنت جالسًا عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: ما لي يا أمير

---

(١) الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٧٦)، برقم (٣٣١٩)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) الطبري في التفسير (١٢/ ١٥٠).
(٣) المسند (١٤٧٣٦).
(٤) المسند (١٥٤٣٧)، (١٧٨٧١).
(٥) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة من طريق أبي يعلى (١/ ٢١٥)، برقم (١١٥).

المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس فجلس، فقرأ عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ - إلى قوله ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فقرأها عليه ثلاثًا، وضربه ثلاثًا، فقال له الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال. قال: مرنى بأمرك أتبعه، قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحدًا من الناس فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأنهكنك عقوبة، ثم قال له اجلس فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتابًا من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم، فقال لى رسول الله ﷺ: «ما هذا فى يدك يا عمر؟» قال: قلت: يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علما إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى اختصارًا، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون» قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبك رسولاً، ثم نزل رسول الله ﷺ، وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مختصرًا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق به وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبة الواسطى، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخارى: لا يصح حديثه، قلت: وقد روى له شاهد من وجه آخر.

فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى [1]: أخبرنى الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى، حدثنى عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعرى عن الزبيدى، حدثنا سليم بن عامر أن جبير بن نفير حدثهم أن رجلين كانا بحمص فى خلافة عمر رضى الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا من اليهود تلا صفتين فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة، وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتابين، وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئًا؟ فقالا: لا، قال سأحدثكما: انطلقت فى حياة النبى ﷺ حتى أتيت خيبر، فوجدت يهوديًا يقول قولا أعجبنى، فقلت: هل أنت مكتبى ما تقول؟ قال: نعم فأتيت بأديم، فأخذ يملى على حتى كتبت فى الأكرع، فلما رجعت قلت: يا نبى الله وأخبرته. قال «ائتنى به» فانطلقت أرغب عن المشى رجاء أن أكون أتيت رسول الله ﷺ ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ على» فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلون، فتحيرت من الفرق، فما استطعت أن أجيز منه حرفا، فلما رأى الذى بى دفعه ثم جعل يتبعه رسما رسما فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء فإنهم قد هوكوا وتهوكوا» حتى محا آخره حرفًا حرفًا.

قال عمر رضى الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئًا جعلتكما نكالا لهذه الأمة، قالا: والله ما نكتب منه شيئًا أبدًا، فخرجا بصفنيهما، فحفرا لها، فلم يألوا أن يعمقا ودفناها، فكان آخر العهد

(١) أخرجه الأصبهاني في حلية الأولياء (٥/ ١٣٦).

منها، وكذا روى الثورى عن جابر بن يزيد الجعفى عن الشعبى عن عبد الله بن ثابت الأنصارى عن عمر بن الخطاب بنحوه، وروى أبو داود فى المراسيل من حديث أبى قلابة عن عمر نحوه، والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد فى قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما قال الإمام أحمد: [١] ثنا عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفرد بإخراجه البخارى، [٢] فرواه عن عبد الله بن محمد عن عبد الصمد به، وقال البخارى [٣] أيضًا: ثنا محمد، أنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ، أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا» ثم قال: تابعه أبو أسامة عن عبيد الله.

وقال ابن عباس رؤيا الأنبياء وحى، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثورى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد جاء فى حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبًا.

فقال الإمام أبو جعفر بن جرير [٤]: حدثنى على بن سعيد الكندى، ثنا الحكم بن ظهير عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبى ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودى، فقال له: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبى ﷺ ساعة فلم يجبه بشىء. ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال «جريان، والطارق، والذيال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور» فقال اليهودى: إى والله إنها لأسماؤها.

ورواه البيهقى [٥] فى الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلى وأبو بكر البزار فى مسنديهما، وابن أبى حاتم فى تفسيره، أما

---

(١) المسند (٥٦٧٩).
(٢) البخاري برقم (٤٦٨٨).
(٣) البخاري برقم (٤٦٨٩).
(٤) في التفسير (١٢/ ١٥١).
(٥) وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٣٧٨)، برقم (١١١١).

أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به، وزاد: قال رسول الله ﷺ : «لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد، - قال - والشمس أبوه والقمر أمّه» تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون، وقال الجوزجانى: ساقط وهو صاحب حديث حسن يوسف.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التى تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحترامًا وإكرامًا، فخشى يعقوب عليه السلام أن يحدّث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أى يحتالوا لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحدًا فإنها لن تضره»[1] وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن[2] من رواية معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت» ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد فى حديث «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذى نعمة محسود»[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك (كذلك يجتبيك ربك) أى يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعنى تعبير الرؤيا ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أى بإرسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الخليل ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ولده وهو الذبيح فى قول، وليس بالرجيح ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال فى الآية الأخرى.

---

(١) البخاري برقم (٣٢٩٢)، ومسلم برقم (٢٢٦١)، من حديث أبي قتادة بنحوه.

(٢) المسند (١٥٧٤٩)، وأبو داود برقم (٥٠٢٠)، والترمذي برقم (٢٢٧٩)، ابن ماجه برقم (٣٩١٤)، من حديث أبي رزين العقيلي.

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ٢٩٢)، برقم (١١٨٦)، من حديث معاذ ، وانظر صحيح الجامع، برقم (٩٤٣).

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

يقول تعالى لقد كان فى قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يستخبر عنه ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ أى حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعنون فى تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفى هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم تكونوا من بعد إعدامه قوما صالحين فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل.

وقال السدى: الذى قال ذلك، يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أى لا تصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب وهو أسفله. قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أى المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيرًا، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرًا عظيمًا رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

يجب الإشمام أو الروم

﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما تواطئوا على أخذه وطرحه فى البئر كما أشار به عليهم أخوهم روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أى ابعثه معنا «غدًا نرتع ونلعب» وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط، وكذا قال قتادة والضحاك والسدى وغيرهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أى يشق علىّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال فى الخَلق والخُلق صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها فى الساعة الراهنة ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذًا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

يقول تعالى فلما ذهبت به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامًا له، وبسطًا وشرحًا لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، وذكر السدى وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط فى الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه يقال لها الراغوفة، فقام فوقها.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر فى حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق تطييبًا لقلبه وتثبيتًا

له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه.

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير: [1] حدثني الحارث، ثنا عبد العزيز، ثنا صدقة بن عبادة الأسدي عن أبيه، قال سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب، قال: ثم نقره فطن، قال: فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب، قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال الثوري عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر

---

(١) الطبري في التفسير (١٢/ ١٦٢).

الجميل الذى لا جزع فيه. وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبان بن أبى جبلة، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فقال: «صبر لا شكوى فيه» (١) وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق: قال الثورى، عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكى نفسك وذكر البخارى (٢) ههنا حديث عائشة رضى الله عنها فى الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ۚ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه فى ذلك الجب فريدًا وحيدًا، فمكث فى البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريبًا من تلك البئر، وأرسلوا واردهم وهو الذى يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: «يا بشراي هذا غلام». وقرأ بعض القراء ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾، فزعم السدى أنه اسم رجل، ناداه ذلك الرجل الذى أدلى دلوه معلما له أنه أصاب غلامًا، وهذا القول من السدى غريب لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا فى رواية عن ابن عباس، والله أعلم، وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه وحذف ياء الإضافة، وهو يريدها كما تقول العرب: يا نفس اصبرى ويا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى «يا بشراى»، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أى وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدى وابن جرير: هذا قول، وقال العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يعنى إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ يباع فباعه إخوته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأنى عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنى سأملى لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قاله مجاهد وعكرمة والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أى اعتاض عنه

(١) الطبري في التفسير (١٢/١٦٦).
(٢) البخاري برقم (٢٦٦١).

إخوته بثمن دُون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين أى ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوه بلا شىء لأجابوا.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير فى قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف.

وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير فى شروره إنما هو لإخوته. وقيل: المراد بقوله ﴿بَخْسٍ﴾ الحرام. وقيل: الظلم، وهذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد لأنه نبى ابن نبى ابن نبى ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أى إنهم إخوته وقد باعوه، ومع هذا بأنقص الأثمان، ولهذا قال ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، فعن ابن مسعود رضى الله عنه: باعوه بعشرين درهمًا، وكذا قال ابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى، وزاد اقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهمًا. وقال الضحاك فى قوله ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل، وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، حتى وقفوه بمصر فقال: من يبتاعنى وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلمًا.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذى اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكان الذى اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها قال العوفي عن ابن عباس وكان اسمه قطفير. وقال محمد بن إسحاق: اسمه أطفير بن روحيب وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل، وقال غيره: اسمها زليخا، وقال محمد بن إسحاق أيضًا، عن محمد بن السائب، عن أبى صالح، عن ابن عباس: كان الذى باعه بمصر مالك بن ذعر بن بويب بن عفقان بن مديان بن إبراهيم، فالله أعلم. وقال أبو إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ الآية [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعنى بلاد مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

قال مجاهد والسدى: هو تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع

ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾: أى فعال لما يشاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يقول: لا يدرون حكمته فى خلقه وتلطفه وفعله لما يريده، وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أى يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أى استكمل عقله وتم خلقه ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ يعنى النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أى إنه كان محسنًا فى عمله عاملاً بطاعة الله تعالى، وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون، وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنة. وقال الإمام مالك وربيعة بن زيد بن أسلم والشعبى: «الأشد»: الحُلُم، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أى حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًّا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، وقال﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أى إن بعلك ربى أحسن مثوى أى منزلى، وأحسن إلىّ فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها. وقال علىّ بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس: هيت لك، تقول هلم لك، وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة. قال عمرو بن عبيد عن الحسن: وهى كلمة بالسريانية، أى عليك. وقال السدى: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، أى هلم لك، وهى بالقبطية. وقال مجاهد: هى لغة غريبة تدعوه بها. وقال البخارى: وقال عكرمة: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، أى هلم لك بالحورانية. وهكذا ذكره معلقًا.

وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: [1] حدثنى أحمد بن سهيل الواسطى، حدثنا قرة بن عيسى، حدثنا النضر بن عربى الجزرى عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ قال: هلم لك، قال: هى بالحورانية، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائى يحكى هذه القراءة، يعنى ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، ويقول: هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها تعال. وقال أبو عبيدة: سألت شيخًا عالمًا من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها، واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه:

---

(١) الطبري في التفسير (١٢/١٧٩)

أبلغ أمير المؤمنين ... عن أخا العراق إذا أتيتا
أن العراق وأهله ... عنق إليك فهيت هيتا

يقول: فتعال واقترب.

وقرأ ذلك آخرون «هِئْتُ لك» بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء، بمعنى تهيأت لك من قول القائل هئت للأمر أهيء هيئة، وممن روى عنه هذه القراءة: ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمى وأبو وائل وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائى ينكران هذه القراءة، وقرأ عبد الله بن إسحاق: «هَيتِ» بفتح الهاء وكسر التاء، وهى غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة «هَيتُ» بفتح الهاء وضم التاء، وأنشد قول الشاعر:

ليس قومى بالأبعدين إذا ما ... قال داع من العشيرة هيت

قال عبد الرزاق [1]: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى وائل، قال: قال ابن مسعود قد سمعت القرأة فسمعتهم متقاربين، فاقرءوا كما علمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال. ثم قرأ عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إن ناسًا يقرءونها (هَيتُ). فقال عبد الله: إنى أقرؤها كما علمت أحب إلىّ.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة عن منصور، عن أبى وائل، قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال له مسروق: إن ناسًا يقرءونها: «هيتُ لك»، فقال: دعونى فإنى أقرأ كما أقرئت، أحب إلىّ، وقال أيضًا: حدثنى المثنى، حدثنا آدم بن أبى إياس قال: حدثنا شعبة عن الأعمش عن شقيق، عن ابن مسعود، قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء، وبلا همز. وقال آخرون: «هيتُ لك» بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء. قال أبو عبيد معمر بن المثنى: هيت لا تثنى، ولا تجمع، ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيت لكَ، وهيت لكِ، وهيت لكما، وهيت لكم، وهيت لهن.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام، وقد روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف فى ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم. وقال بعضهم: المراد بهمه بها هم خطرات وحديث النفس، حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوى [2] ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائى، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»، وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمنلها زوجة. وقيل: هم

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢/ ٣٨٤)، برقم (٣٨٠٤).
(٢) البخاري برقم (٧٥٠١)، ومسلم برقم (١٢٨)، الترمذي برقم (٣٠٧٢).

بها لولا أن رأى برهان ربه أى فلم يهم بها، وفى هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذى رآه ففيه أقوال أيضًا، فعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبى صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضًا على أصبعه بفمه. وقيل عنه فى رواية: فضرب فى صدر يوسف. وقال العوفى عن ابن عباس: رأى خيال الملك يعنى سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال أطفير سيده حين دنا من الباب.

وقال ابن جرير [(١)]: حدثنا أبو كريب قال حدثنا وكيع عن أبى مودود قال سمعت من محمد بن كعب القرظى قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب فى حائط البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وكذا رواه أبو معشر المدنى عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى نافع بن يزيد، عن أبى صخر، قال: سمعت القرظى يقول: فى البرهان الذى رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿وإن عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ الآية [الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظى، وزاد آية رابعة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقال الأوزاعى رأى آية من كتاب الله فى الجدار تنهاه عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. قال: وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أى كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أى من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته فى أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدّته قدًّا فظيعًا، يقال: إنه سقط عنه واستمر يوسف هاربًا ذاهبًا، وهى فى أثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أى فاحشة ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أى يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى يضرب ضربًا شديدًا موجعًا. فعند ذلك انتصر

(١) الطبري في التفسير (١٢/ ١٩٠).

يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و﴿قَالَ﴾ بارًا صادقًا: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي في قولها إنه أردها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدّت قميصه فيصح ما قالت ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال ذو لحية. وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً. وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها. وقال ابن عباس: كان من خاصة الملك. وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: كان صبيًا في المهد، وكذا روى عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبيًا في الدار، واختاره ابن جرير. وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: [1] حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد هو ابن سلمة، أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف، ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم». وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: كان من أمر الله تعالى، ولم يكن إنسيًا وهذا قول غريب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال آمرًا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي اضرب عن هذا الأمر صفحًا، أي فلا تذكره لأحد.

﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه فقال لها: استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ﴾.

(١) الطبري في التفسير (١٢/ ١٩٥).

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة وهى مصر، حتى تحدث به الناس ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أى تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه. قال الضحاك عن ابن عباس: الشعف الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف حجاب القلب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى فى صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن: وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أى دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾. قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدى وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أى أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشًا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد، وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله أعلم.

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجًا وآتت كل واحدة منهن سكينًا: هل لكن فى النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومدبرًا، فرجع وهن يحززن فى أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟ فقلن ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذى رأينا، لأنهن لم يرين فى البشر شبهه ولا قريبًا منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطى شطر الحسن كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام فى السماء الثالثة، قال «فإذا هو قد أعطى شطر الحسن».

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطى يوسف وأمه شطر

الحسن» [١].

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن. وقال أبو إسحاق أيضًا، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به. ورواه الحسن البصرى مرسلا عن النبى ﷺ أنه قال: «أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطى الناس الثلثين»، [٢] أو قال «أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث». وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجرشى قال: قسم الحسن نصفين فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلى: معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه، فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾. قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وقرأ بعضهم (ما هذا بِشِرًى) أى بمشترى بشراء ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أى فامتنع.

قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن، وهى العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أى من الفاحشة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أى إن وكلتنى إلى نفسى فليس لى منها قدرة ولا أملك لها ضرًا ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلنى إلى نفسى ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهى امرأة عزيز مصر، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفًا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» [٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦٢)، بدون ذكر (أمه)، أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٦٢٢)، برقم (٤٠٨٢) بلفظ المصنف.

(٢) ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٦٠)، ومسلم برقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أى إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهى الأدلة على صدقه فى عفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم- إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدى أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها فى حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه. قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذى على الشراب بنوا والآخر مجلث. قال السدى: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر فى السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه. ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًّا شديدًا وقالا له: والله لقد أحببناك حبًّا زائدًا. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل على من محبته ضرر، أحبتنى عمتى فدخل على الضرر بسببها، وأحبنى أبى فأوذيت بسببه، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما فرأى الساقى أنه يعصر خمرًا يعنى عنبًا، وكذلك هى فى قراءة عبد الله بن مسعود: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَبًا».

ورواه ابن أبى حاتم [1] عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود أنه قرأها: «أعصر عنبًا»: وقال الضحاك فى قوله ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ يعنى عنبًا، قال: وأهل عمان يسمون العنب خمرًا، وقال عكرمة: قال له: إنى رأيت -فيما يرى النائم- أنى غرست حبة من عنب، فنبتت فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث فى السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرًا.

وقال الآخر وهو الخباز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ الآية، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره. وقال ابن جرير [2]: حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنما كان تحالما ليجربا عليه.

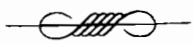

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢١٥).
(٢) الطبري في التفسير (١٢/ ٢٢١).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

قال مجاهد: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ فى نومكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدى. وقال ابن أبى حاتم رحمه الله: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد بن يزيد شيخ له، عن رشدين عن الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف وهو كذلك، لأنى أجد فى كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلوًا أو مرًّا اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلم، وهذا أثر غريب، ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياى، لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا فى المعاد ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين، فإن الله يهدى قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أى أوحاه إلينا وأمرنا به. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أبًا ويقول: والله لمن شاء لاعناه عند الحجر، ما ذكر الله جدًّا ولا جدة، قال الله تعالى يعنى إخبارًا عن يوسف: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثم إنّ يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أى الذى ولى كل شىء بعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أى حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم

والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذى أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جرير: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها. فعاودوه فأعاد عليهم الموعظة، وفى هذا الذى قاله نظر، لأنه قد وعدهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة، وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع فى تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

يقول لهما ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه فى قوله ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾ وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، وقال الثورى: عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ورواه محمد بن فضيل عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله أن من تحلم بباطل، وفسره فإنه يلزم بتأويله، والله تعالى أعلم، وقد ورد فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد[1] عن معاوية بن حيدة، عن النبى ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت» وفى مسند أبى يعلى[2] من طريق يزيد الرقاشى، عن أنس مرفوعًا «الرؤيا لأول عابر».

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتى عند ربك، وهو الملك، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبى الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ عائد على الناجى، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ضعيف: في مسنده (٧/ ١٥٨)، برقم (٤١٣١)، وابن ماجه، برقم (٣٩١٥)، وانظر ضعيف ابن ماجه.

رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضًا وعكرمة وغيرهم، وأسند ابن جرير [1] ههنا حديثًا فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعًا، قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال، ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله»، وهذا الحديث ضعيف جدًا، لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضًا. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعًا، ويوسف في السجن سبعًا، وعذاب بختنصر سبعًا، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال: ثنتا عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن، معززًا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أمة، أي مدة، وقرأ بعضهم: (بعد أمهٍ) أي بعد نسيان، فقال لهم، أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاءه، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين لأنها تثير

(١) صحيح: الطبري في التفسير (١٢/ ٢٢٣)، وانظر صحيح الجامع، برقم (٣٩٨٤).

الأرض التى تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين، فقال ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أى مهما استغللتم فى هذه السبع السنين الخصب، فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلا قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التى تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان، لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه فى سنى الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء، ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس، أى يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا. قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

الجزء ١٣ الحزب ٢٥

يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التى كان رآها بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف -عليه السلام-، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلما وعدوانًا، فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الآية. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففى المسند والصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد وأبى سلمة، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية، ويرحم الله لوطا كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى» [(١)]، وفى لفظ لأحمد: [(٢)] حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا، لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر».

وقال عبد الرزاق [(٣)]: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) الطبري في المسند (٨٣٤٩).
(٣) أخرجه الطبري في التفسير من طريق عبد الرزاق (١٢/ ٢٣٥).

«لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»، هذا حديث مرسل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبًا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أى شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يعنى يوم الضيافة، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أى قالت النسوة جوابًا للملك: حاشا لله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أى فى قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[يوسف: ٢٦] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأن ﴿ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام.

وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الآيتين، أى إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتى، وليعلم العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الآية، وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه.

وقال ابن جرير [1]: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية، قال يوسف ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ الآية: قال: فقال له جبريل عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ الآية، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبى الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدى، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

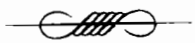

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ٣).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أى خاطبه الملك، وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خُلُقٍ وخَلْق وكمال، قال له الملك ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أى خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وقال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتنى، عليم بسنى الجدب، رواه ابن أبى حاتم، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فى ذلك من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث شاء بعد الضيق والحبس والإسار، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا، كقوله فى حق سليمان عليه السلام ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٩-٤٠] والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام، قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق: لما قال يوسف للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قال الملك: قد فعلت، فولاه فيما ذكروا عمل أطفير، وعزل أطفير عما كان عليه، يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: فذكر لى - والله أعلم - أن أطفير هلك فى تلك الليالى، وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة أطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال لها: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق لا تلمنى، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها

عذراء، فأصابها، فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف، وولد لأفرائيم نون والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام، وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ذكر السدى ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنين الجدب، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهى التى فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس فى غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة، وكان عليه السلام، لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة فى وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما فى أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم فى السنة الأولى بالأموال، وفى الثانية بالمتاع، وفى الثالثة بكذا، وفى الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب، والغرض أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعامًا، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس فى أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، وهم له منكرون أى لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدى وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبى الله.

قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا، هلك فى البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم لأعلم صدقكم فيما

ذكرتم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ الآية، أى إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية فليس لكم عندى ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أى سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقى مجهودًا لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدى أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفى هذا نظر لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرًا، وهذا لحرصه على رجوعهم، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ أى غلمانه ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أى التى قدموا بها ليمتاروا عوضًا عنها ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ أى فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ بها، قيل: خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن الطعام، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجًا وتورعًا، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾، قرأ بعضهم بالياء أى يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أى لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له فى يوسف ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أى هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عنى، وتحولون بينى وبينه؟ (فالله خير حفظًا) وقرأ بعضهم ﴿حَٰفِظًا﴾ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أى هو أرحم الراحمين بى، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى، وأرجو من الله أن يرده على ويجمع شملى به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أى ماذا نريد ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، كما قال قتادة: ما نبغى وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أى إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرًا، كذا قال ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، أى إن هذا يسير

فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أى تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًّا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد: إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه، وروى ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى فى قوله ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته فى بعض تلك الأبواب. وقوله ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أى إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا يمانع، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ قالوا: هى دفع إصابة العين لهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ قال قتادة والثورى: لذو عمل بعلمه.

وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أى لا تأسف على ما صنعوا بى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرّما معظمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

لما جهزهم وحمّل لهم أبعرتهم طعامًا، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهى إناء من فضة فى

قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد، كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، وقال شعبة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ صواع الملك، قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله فى الجاهلية، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أى صاعه الذى يكيل به ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أى لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا ما جئنا للفساد فى الأرض ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أى ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة، فقال لهم الفتيان ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أى السارق إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أى: أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذى أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أى فتشها قبله تورية، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاما لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أى لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية [المجادلة: ١١]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال الحسن البصرى: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى إلى الله عز وجل، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثورى، عن عبد الأعلى الثعلبى، عن سعيد بن جبير، قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله! فوق كل ذى علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت! الله العليم فوق كل عالم، وكذا روى سماك عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله: (فوق كل عالم)، وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة: وفوق كل ذى علم عليم، حتى ينتهى العلم إلى الله، منه بدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفى قراءة عبد الله، وفوق كل عالم عليم.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير، عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجده أبى أمه فكسره، وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نجيح، عن مجاهد، قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلما لا ينازع فيه، يصنع فيه ما شاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته، فكان منها وإليها، فلم يُحب أحد شيئًا من الأشياء حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام، فأتاها فقال: يا أخية سلمى إلى يوسف، فو الله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة.

قالت: فو الله ما أنا بتاركته، ثم قالت: فدعه عندى أياما أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه، أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ والتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لى لسلم، أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، قال: فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾. وقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ يعنى الكلمة التى بعدها، وهى قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أى تذكرون، قال هذا فى نفسه ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة فى منثورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفى عن ابن عباس ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾، قال: أسر فى نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون: وهو يحبه حبًا شديدًا ويتسلى به عن ولده الذى فقده ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أى بدله يكون عندك عوضًا عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أى كما قلتم واعترفتم ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أى إن أخذنا بريئًا بسقيم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُوا۟﴾ أى انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لترددنه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أى لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ فى الرجوع إليه راضيًا عنى ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكننى من أخذ أخى ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرًا لهم عنده، ويتنصلوا إليه ويبرءوا مما وقع بقولهم وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ما نعلم أن ابنك يسرق.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا فى الغيب أنه سرق له شيئًا، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾: قيل المراد مصر، قاله قتادة، وقيل غيرها، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أى التى رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم وظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذى أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أى العليم بحالى، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى أعرض عن بنيه، وقال متذكرًا حزن يوسف القديم الأول ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين، قال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى عن سفيان العصفرى، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: فهو كظيم كئيب حزين.

وقال ابن أبي حاتم [1]: حدثنا أبى ثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن، عن الأحنف بن قيس: أن النبى ﷺ قال: «إن داود عليه السلام قال: يا رب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلنى لهم رابعًا، فأوحى الله تعالى إليه: أن يا داود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر، وتلك بلية لم تنلك».

وهذا مرسل وفيه نكارة، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن على بن زيد بن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم، وأقرب ما فى هذا أن الأحنف بن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بنى إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن بنى إسرائيل ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له فى رد ابنه، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلى بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، فى حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى ضعيف الجسم ضعيف القوة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ﴾ أى همى وما أنا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعنى رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها، وقال العوفى عنه فى الآية: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنى سوف أسجد له.

وقال ابن أبي حاتم [2]: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبى غنية عن حفص بن عمر بن أبى الزبير، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبى عليه السلام أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذى أذهب بصرك، وقوس ظهرك؟ قال: أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف، وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحى أن تشكونى إلى

---

(١) منكر: فيه على بن زيد بن جدعان: ضعيف، والإسناد منكر، ووجه النكارة أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق، وقال ابن كثير رحمه الله: وهذا مرسل وفيه نكارة.

(٢) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٨)، برقم (٣٣٢٨)، وفي متن الحديث نكارة كما قال ابن كثير.

غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فقال جبريل عليه السلام: الله أعلم بما تشكو» وهذا حديث غريب فيه نكارة.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون فى الخير، والتجسس يستعمل فى الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله أى لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدون له، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وقوله ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أى ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد. وقال ابن عباس: الرديء الذى لا ينفق مثل خلق الغِرَارة والحبل والشيء، وفى رواية عنه: الدراهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان، وكذا قال قتادة والسدى. وقال سعيد بن جبير: هى الدراهم الفسول. وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق. وقال أبو صالح: جاءوا بحب البطم الأخضر والصنوبر، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء، كما قال حاتم طيىء:

لبيك على مِلْحَانَ ضيف مدفع وأرملة تزجى مع الليل أرملا

وقال أعشى بنى ثعلبة:

الواهب المائة الهجان وعبدها عُوذًا تزجى خلفها أطفالها

وقوله إخبارًا عنهم ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أى أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: (فأوقر ركابنا وتصدق علينا). وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا. وقال سعيد بن جبير والسدى ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها. وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ؟ فقال ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم عنه.

وقال ابن جرير [1]: حدثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية عن عثمان بن الأسود، سمعت مجاهدًا وسئل: هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه: اللهم تصدق علي؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب.

---

[1] الطبري في التفسير (١٣/ ٥٤).

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن يوسف عليه السلام، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة.

وقال ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ يعنى كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أى إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه.

كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له فى ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك، والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] فعند ذلك قالوا ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ وقرأ أبى بن كعب «أو أنت يوسف»، وقرأ ابن محيصن «إنك لأنت يوسف». والقراءة المشهورة هى الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أى أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾.

وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أى: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخُلُق والخَلْق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضًا، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطئوا فى حقه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: أى لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم فى حقى بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال السدى: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم: وقال ابن إسحاق والثورى ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أى لا تأنيب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أى: يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء،

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى بجميع بنى يعقوب، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أى خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعنى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبونى إلى الفند والكبر قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل عن أبى سنان، عن عبد الله بن أبى الهذيل، قال: سمعت ابن عباس يقول: ولما فصلت العير، قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وكذا رواه سفيان الثورى وشعبة وغيرهما عن أبى سنان به وقال الحسن وابن جريج: كان بينهما ثمانون فرسخًا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير تسفهون وقال مجاهد أيضًا والحسن: تهرمون. وقولهم ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم. وقال قتادة: أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبى الله ﷺ، وكذا قال السدى وغيره

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

قال ابن عباس والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾ البريد. وقال مجاهد والسدى: كان يهوذا بن يعقوب، قال السدى: إنما جاء به لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا، وقال لبنيه عند ذلك ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم أن الله سيرده إلىَّ، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف ٩٤] فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

وقال ابن جرير [1]: حدثنى أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع إنسانًا يقول: اللهم دعوتنى فأجبت، وأمرتنى فأطعت، وهذا السحر فاغفر لى. قال فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وقد ورد فى الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة، كما قال ابن جرير أيضًا: حدثنى المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج عن عطاء، وعكرمة عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: «حتى تأتى ليلة الجمعة، وهو قول أخى يعقوب لبنيه» وهذا غريب من هذا الوجه، وفى رفعه نظر، والله أعلم».

---

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ٦٤).

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبى الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضًا لتلقيه، وهو الأشبه، وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين.

فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: وقال أدخلوا مصر إن شاء الله إمنين وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش، وقد رد ابن جرير هذا، وأجاد فى ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدى أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وفى هذا نظر أيضا، لأن الإيواء إنما يكون فى المنزل، كقوله ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩] وفى الحديث «من آوى محدثًا» وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أى مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التى دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف»[1] ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان فى ذلك، فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام.

وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديمًا. وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذى نصره هو المتصور الذى يدل عليه السياق. وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعنى السرير، أى أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ﴾ أى التى كان قصها على أبيه من قبل، ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية [يوسف: ٤]، وقد كان هذا سائغًا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا فى هذه الملة، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفى الحديث أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال «ما هذا يا معاذ؟» فقال إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله،

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٤)، ومسلم برقم (٢٧٩٨)، بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فقال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها» [١].

وفى حديث آخر: أن سلمان لقى النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبى ﷺ فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت»، [٢] والغرض أن هذا كان جائزًا فى شريعتهم، ولهذا خروا له سجدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أى هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أى صحيحة صدقًا يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أى البادية. قال ابن جريج وغيره: كانوا من أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام، قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حِسْمَى، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أى إذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا وقدره ويسره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده. قال أبو عثمان النهدى، عن سليمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة، قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهى أقصى الرؤيا، رواه ابن جرير، وقال أيضًا: [٣] حدثنا عمر وبن على، حدثنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنا هشام عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجرى على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب.

وقال هشيم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة، وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة، وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيعى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، قال: دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنسانًا، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفًا، وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة، فالله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظى، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنسانًا: صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

---

(١) حسن صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، أحمد (١٨٩١٣)، من حديث عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنه، انظر صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٥٩٥)، برقم (١٨٥٣).

(٢) قال عنه ابن كثير: مرسل حسن.

(٣) الطبري في التفسير (١٣/ ٧٠).

﴿۞رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه، قاله الضحاك: وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت فى الصحيحين [١] عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم فى الرفيق الأعلى اللهم فى الرفيق الأعلى! اللهم في الرفيق الأعلى!»، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزًا كما يقول الداعى لغيره: أماتك الله على الإسلام! ويقول الداعى: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين! ويحتمل أنه سأل ذلك منجزًا، وكان ذلك سائغًا فى ملتهم، كما قال قتادة قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور فى الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله.

وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف عليه السلام، وكذا ذكر ابن جرير والسدى عن ابن عباس أنه أول نبى دعا بذلك، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحًا أول من قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز فى شريعتنا. قال الإمام أحمد بن حنبل [٢] رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان ولا بد متمنيًا الموت، فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى» وأخرجاه فى الصحيحين، وعندهما «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنًا فيزداد، وإما مسيئًا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى».

وقال الإمام أحمد [٣]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعة، حدثنى على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا، فبكى سعد بن أبى وقاص فأكثر البكاء، وقال: يا ليتنى مت، فقال النبى ﷺ: «يا سعد أعندى تتمنى الموت؟» فردد ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «يا سعد إن كنت خلقت للجنة، فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك» وقال الإمام أحمد: [٤] حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس، وهو سليم بن جبير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون

(١) البخاري برقم (٤٤٣٨)، مسلم برقم (٢٤٤٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٦٧١)، مسلم برقم (٢٦٨٠)، أحمد برقم (١١٥٦٨)، من حديث أنس بن مالك.
(٣) المسند (٢١٧٩٠).
(٤) المسند (٧٥٢٤)، ومسلم برقم (٢٦٨٢).

قد وثق بعمله، فإنه إن مات أحدكم انقطع عنه عمره، وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرًا» تفرد به أحمد، وهذا فيما إذا كان الضر خاصًا به، وأما إذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخبارًا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٦] .

وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٣] لما تَعْلَمُ من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج، وقد حملت ووضعت، وقد قالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[مريم: ٢٧-٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجًا ومخرجًا، وأنطق الصبى فى المهد بأنه عبد الله ورسوله، فكان آية عظيمة، ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه. وفى حديث معاذ الذى رواه الإمام أحمد والترمذى[١] فى قصة المنام والدعاء الذى فيه «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون» .

وقال الإمام أحمد[٢]: حدثنا أبو سلمة، أنبأنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد مرفوعًا أن النبى ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب» فعند حلول الفتن فى الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال على بن أبى طالب -رضى الله عنه- فى آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهم خذنى إليك، فقد سئمتهم وسئمونى.

وقال البخارى رحمه الله: لما وقعت له تلك المحسن وجرى له مع أمير خراسان ما جرى، قال: اللهم توفنى إليك. وفى الحديث «إن الرجل ليمر بالقبر - أى فى زمان الدجال - فيقول: يا ليتنى مكانك»[٣] لما يرى من الفتن. والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التى هى فتنة لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بَنى يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

(ذكر من قال ذلك)

حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى حجاج عن صالح المرى، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك قال: إن الله تبارك وتعالى لما جمع ليعقوب شمله زأقر عينه خلا ولده نجيا، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم؟ وما لقى منكم الشيخ، وما لقى منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال فيغركم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ، فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جانب أبيه قاعد، قالوا: يا أبانا إنا أتيناك فى أمر لم نأتك فى مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه، والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى قالوا: أفلستما قد غفوتما

(١) **صحيح**: المسند (٢١٦٠٤)، الترمذي برقم (٣٢٣٥). وانظر صحيح الترمذي.
(٢) المسند (٢٣١١٣).
(٣) البخاري برقم (٧١١٥)، ومسلم برقم (١٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لنا؟ قالا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئًا، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عنا، قرت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرة عين فى الدنيا لنا أبدًا.

قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، قال: فدعا وأمن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة، قال صالح المرى يخيفهم، قال: حتى إذا كان على رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام، على يعقوب عليه السلام، فقال: إن الله تعالى قد بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة [1]. هذا الأثر موقوف عن أنس. ويزيد الرقاشى وصالح المرى ضعيفان جدًا. وذكر السدى أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليهم السلام.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقرر تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم ولا مشاهدًا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أى على إلقائه فى الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك وإنزالا عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ الآية [القصص: ٤٤]، إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية [القصص: ٤٦]، أن قال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [القصص: ٤٥]، وقال ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٩-٧٠] يقرر تعالى أنه رسوله وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦] كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أى من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحًا لخلقه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أى يتذكرون به ويهتدون وينجون به فى الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ٧٤)

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم فى الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات فى الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذى الاسماء والصفات، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم يشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهكذا فى الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وفى صحيح مسلم [(١)] أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، يقول رسول الله ﷺ: «قد قد» أى حسب حسب، لا تزيدوا على هذا. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره، كما فى الصحيحين [(٢)] عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك».

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك يعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢] وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النجود عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى فى عضده سيرًا فقطعه - أو انتزعه - ثم قال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ وفى الحديث «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» [(٣)] رواه الترمذى وحسنه من رواية ابن عمر، وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره [(٤)] عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، وفى لفظ لهما «الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» [(٥)] ورواه الإمام أحمد [(٦)] بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا

(١) مسلم برقم (١١٨٥). (٢) البخاري برقم (٤٤٧٧)، مسلم برقم (٨٦).
(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود برقم (٣٢٥١)، والترمذي برقم (١٥٣٥)، أحمد برقم (٥٥٦٨). والحديث حسنه الترمذي من رواية ابن عمر، وانظر صحيح أبي داود.
(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، ابن ماجه (٣٥٣٠)، أحمد (٣٦٠٤)، وانظر صحيح أبي داود.
(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، الترمذي برقم (١٦١٤)، ابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد (٣٦٧٩)، من حديث عبد الله بن مسعود، وانظر صحيح أبي داود.
(٦) سبق تخريجه.

الأعمش عن عمرو بن مرة، عن يحيى ابن الجزار عن ابن أخى زينب، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جنبى، فرأى فى عنقى خيطًا قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقى لى فيه، فأخذه فقطعه ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالت: قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عينى تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال النبى ﷺ: «أذهب البأس، رب الناس، اشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا».

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد [١] عن وكيع، ثنا ابن أبى ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلقت شيئًا، فقال: أتعلق شيئًا وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئًا وكل إليه» ورواه النسائى عن أبى هريرة، وفى مسند الإمام أحمد [٢] من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علق تميمة فقد أشرك»، وفى رواية «من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»، وعن العلاء عن أبيه، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه» [٣] رواه مسلم.

وعن أبى سعد بن أبى فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» [٤] رواه الإمام أحمد وقال الإمام أحمد: [٥] حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد يعنى ابن الهادى، عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟» وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد به. وقال الإمام أحمد: [٦] حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هبيرة عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك» قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

وقال الإمام أحمد [٧]: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى عن أبى

(١) المسند (١٨٣٠٤).
(٢) المسند (١٦٩٦٩).
(٣) مسلم برقم (٢٩٨٥)، ابن ماجه (٤٢٠٢).
(٤) حسن: أخرجه الترمذي (٣١٥٤)، ابن ماجه (٤٢٠٣)، أحمد (١٧٤٣١)، وانظر صحيح الترمذي.
(٥) المسند (٢٣١١٩).
(٦) المسند (٧٠٠٥).
(٧) المسند (١٩١٠٩).

على - رجل من بنى كاهل - قال: خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون. قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه». وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل فى ذلك هو الصديق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى [١] من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبى سليم، عن أبى محمد، عن معقل بن يسار، قال: شهدت النبى ﷺ أو قال: حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهًا آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل» ثم قال: «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم».

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوى [٢] عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثورى، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، عن أبى بكر الصديق، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشىء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «قل: اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». قال الدارقطنى: يحيى بن كثير هذا، يقال له أبو النضر، متروك الحديث، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى [٣] من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، علمنى شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعى، قال: «قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شىء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه»، وزاد الإمام أحمد [٤] فى رواية له: من حديث ليث بن أبى سليم عن مجاهد، عن أبى بكر الصديق، قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول - فذكر هذا الدعاء وزاد فى آخره - «وأن أقترف على نفسى سوءًا أو أجره إلى مسلم».

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أى أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ

---

(١) صحيح: في مسنده (١/ ٦٠)، برقم (٥٨)، وانظر صحيح الأدب المفرد، حديث (٧١٦).
(٢) أخرجه المقدسى في الأحاديث المختارة (١/ ١٥٠)، برقم (٦٢).
(٣) صحيح: أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، أحمد (٧٩٠١)، والدارمي (٢٦٨٩)، وانظر صحيح أبي داود.
(٤) المسند (٨٢).

رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَٰٓئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله ﷺ إلى الثقلين: الجن والإنس، آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أى طريقه ومسلكه وسنته، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعى وعقلى. وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ﴾ أى وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع. وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم وبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣]، وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه فى أن هذا هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذى عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنهم أنه ليس فى النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرًا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام، فهى صدّيقة بنص القرآن.

وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ﴾ الآية، أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٨-٩]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادى الذين هم من أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعًا وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الآية [التوبة: ٩٧]. وقال قتادة فى قوله ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود. وفى الحديث الآخر أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن لا أتهب هبة إلا من قرشى أو أنصارى أو ثقفى أو دوسى»[1].

وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعنى هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ الآية [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أى وكما أنجينا المؤمنين فى الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضا وهى خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝﴾ [غافر: ٥١-٥٢] وأضاف الدار إلى الآخرة، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما تقول: صلاة الأولى ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس. وقال الشاعر:

أتمدح فقعسًا وتذم عبسًا ... ألا لله أمك من هجين

ولو أقوت عليك ديار عبس ... عرفت الذل عرفان اليقين

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، وفى قوله: ﴿كُذِبُوا۟﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد قد كذبوا، وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها تقرؤها.

---

(١) المسند (٢٦٨٢).

(٢) المسند (٥٠٠٢)، وكذلك أخرجه الترمذي برقم (٢٥٠٧).

قال البخارى [١] : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: أخبرنى عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكذبوا أم كذبوا؟ قالت عائشة كذبوا. قلت أقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم فما هو بالظن؟: قالت: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ فقالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاء نصر الله عند ذلك، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعبة عن الزهرى قال: أخبرنى عروة فقلت لها: لعلها قد كذبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره.

وقال ابن جريج: أخبرنى ابن أبى مليكة أن ابن عباس قرأها ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ خفيفة. قال عبد الله هو ابن أبى مليكة ثم قال لى ابن عباس: كانوا بشرًا، ثم تلا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن جريج: وقال لى ابن أبى مليكة، وأخبرنى عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمدًا ﷺ من شىء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم. قال ابن أبى مليكة فى حديث عروة، كانت عائشة تقرؤها «وظنوا أنهم قد كُذِّبوا» مثقلة للتكذيب.

وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظى يقول هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾.

فقال القاسم: أخبره عنى أنى سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟﴾ تقول: كذبتهم أتباعهم، إسناد صحيح أيضًا.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا فى تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم. وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثورى عن الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذى تكره، وهذا عن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس، فروى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس فى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ وكذا روى عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمى وعبد الرحمن بن معاوية وعلى بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس بمثله.

وقال ابن جرير [٢]: حدثنى المثنى، حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب، حدثنا إبراهيم بن أبى حرّة الجزرى قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله كيف تقرأ هذا الحرف، فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟

---

[١] البخاري برقم (٤٦٩٦).

[٢] الطبري في التفسير (١٣/ ٨٢).

أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؟ قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، قال: فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ، ولو رحلت إلى اليمن فى هذه كان قليلاً، ثم روى ابن جرير أيضًا من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال: فرج الله عنك كما فرجت عنى، وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى إن مجاهدًا قرأها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ بفتح الذال. رواه ابن جرير إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أى وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود، فقال ابن جرير [1]: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل عن جحش بن زياد الضبى عن تميم بن حَذْلم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول فى هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا لهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف - فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية، ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهى العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أى وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أى يكذب ويختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودّة وجوههم بالصفقة الخاسرة. آخر تفسير سورة يوسف ولله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) الطبري في التفسير (١٣/ ٨٥).